جمالية الموت في روايات غسان كنفاني

أ/ مازية حاج علي.
جامعة بسكرة–الجزائر

ملخص:

لاشك أن الموت ظاهرة وصورة تفرض ذاتها على الساحة الفلسطينية، مجسمة أثر موقف ما لفرد أو لجماعة على سيرورة حياة الآخرين، فهناك من يقتل مع سبق الإصرار والترصد ممن يعاديه– الإسرائيلي– وهناك من يموت في سبيل عقيدة يؤمن بها مظهرا هذا الإيمان في رداءة الموت، وهناك من يموت فيختفي في موته القاتل والمقتول... كلها تجليات لحتمية الموت في الأعمال الروائية الخاصة بعالم الأديب غسان كنفاني.

Abstract:

There is no Doubs That death is a phenomenon and an image imposes itself on the palestinian arena stereoscoic effect of the position of the individual or of the group of the process of the lives of otheres, There are those who are killed with premeditation, who ledi-the juif- There are those who die in a matter of doctrine believe in showing this faith in the poor quality of death and there die disappears in his death and the killer almqtol... klha manifestations of the inevitability of death in their own world of writer Ghassan Kanafani novels.

الجانب النظري:

مما لا شك فيه أن الإنسان العربي وخاصة الإنسان الفلسطيني، يعاني ويجابه سلسلة متنوعة من المخاوف والهواجس، فهو يواجه الخوف من الاستعمار الصهيوني، ومن ضغوطاته السياسية، والاجتماعية، والخوف من القهر، ومن السلطة وأجهزة الأمن الإسرائيلية، والتعذيب والإكراه والقمع والتقتيل اليومي للذات الفلسطينية وكل أشكال وألوان التشريد... فإلى أين يتجه هذا الشعب؟

الذي لا مفر له من حتمية الموت مع وحشية المستعمر الصهيوني، ولا طريق تتسع أمامه لتحقيق أحلامه وآماله في الحياة الكريمة الهانئة.

ولقد شغلت قضية الموت الكاتب الفلسطيني غسان كنفاني بصورة لافتة في أعماله الروائية تزامنا مع عبثية الحياة التي عانى منها في المنفى بعيدا عن وطنه، «... وإذا كانت قضية الموت من أهم القضايا التي يتجلى أثرها البالغ في الفكر والإبداع، فقد ظهرت لدى غسان في مستويات متنوعة ومركبة وربما معقدة أيضا، إذ تراوحت رؤيته تجاهها من الموت المجاني الذي يصل إليه الإنسان فيزيولوجيا دون أن يحمل هما إنسانيا، أو أن تؤرقه قضية الموت في سبيل رسالة الاستشهاد أو حياة تتدفق في الآخرين »[1]، فالموت عند الروائي غسان كنفاني نوعان: الأول موت حقيقي مادي تسبب فيه الاحتلال الصهيوني –والثاني موت معنوي وداخلي ولده الشعور بالسقوط والانكسار والهزيمة التاريخية المعروفة بالنكسة أو النكبة الفلسطينية.

الموت ظاهرة مروعة ومخيفة تصيب الإنسان بشرخ نفسي عميق، يولد ويترك في ذاته لحظات عصيبة صعب أن يطويها النسيان، وتبقى محفورة في الذاكرة ما دام على قيد الحياة، ولأن الموت والحياة وجهان لعملة واحدة، فكل إنسان يحيا ليموت في النهاية، هذا هو القانون الطبيعي الأزلي، وعليه يكون الموت الحقيقة الأكيدة في حياة كل إنسان، وهكذا « فإنه على الرغم من أن اكتشاف حتمية الموت يؤدي إلى صدمة عنيفة، وأن الإنسان لم يتقبل دون مقاومة مشهد انفصاله عن الأرض بكل بهائها والفقدان الحتمي لأحبائه، فإن هناك عزاء تمثل في الإيمان بالبعث والخلود...»[2]، هذا الإيمان هو الباعث الوحيد لتقبل الموت والرضا بحقيقته الأكيدة، ورغم أن الموت ظاهرة عامة ومطلقة إلا أنه يعبر عن ظاهرة فردية وشخصية، فكل واحد منا يموت لوحده، ولا يمكن لأحد آخر أن يموت بدلا منه.

وهكذا تتعلق « وترتبط مشكلة الموت من حيث إدراكها بالشخصية، مع أن الموت أساسا هو قضاء على كل شخصية، فكلما كانت الشعوب أنضج وأقوى شخصية كان الإنسان أقدر على إدراك الموت »[3] فالأمر منوط بإرادة وقابلية الذات أو الشخصية ومدى قدرتها على الاقتناع بالموت الحقيقة الوحيدة والثابتة في هذه الحياة.

وعلى الرغم من أن « الموت مفهوم مجرد حقا ولكنه حقيقة مادية وفعل واقعي شأنه في ذلك شأن مفاهيم أخرى مجردة كالخوف من الوحدة أو التقدم في العمر أو غيرهما مما يمكن أن يؤثر فينا

ونخشاه، كما توجد فروق فردية في الاستجابة لمقاييسه »[4] إذن الموت حادثة مروعة تكسر إيقاع الحياة الرتيب وتوقف دورتها الدائمة والمتواصلة، وهو كذلك من أكثر اللحظات إثارة للمشاعر النفسية مثل: الحزن، الخوف والفزع والحيرة أو الصدمة الكبيرة.

ويرتبط العمل السردي للروائي غسان كنفاني بفكرة الموت، وذلك عبر محطات مرتبة تاريخيا حسب الظروف التي مرت على القضية الفلسطينية، ليرينا أن الإنسان الفلسطيني عاجز مكبل أمام الموت الذي يعصف به من كل جانب، ويغير بعد ذلك كل شيء. والروائي كنفاني الفلسطيني الأصل والهوية « مال فيه إلى تمجيد الموت باعتباره عرشا للشهيد ومدخلا أساسيا لاسترجاع الأرض والهوية من يد الغاصبين، وكان يذكي هذا التوجه حاجة الحالة الفلسطينية إلى ضخ الحماس في نفوس الفدائيين، خصوصا إبان صعود الوعي القومي وتأجيج الشعور الوطني مع ما رافق ذلك من أحداث دامية ومذابح شهيرة...»[5]، وتكمن أهمية الموت عندما يتحول من معنى الموت العبثي السلبي إلى الموت بشرف ومجد وشهادة وتضحية.

وبذلك يعطي الروائي للموت دلالة أخرى تتمثل في الوجود والماهية، لأن دروب الحياة دائما ما كانت تقتضي و« ...تفضي للموت، فقد يكون هذا الموت قهرا على فراق الوطن أو شعورا بالضياع وفقدان الهوية أو الحقد أو القتل اللذين يلاحقان المقاومة في كل مكان في الخارج وحتى في الداخل الفلسطيني »[6]، وهو الأمر الذي يؤكد احتدام الصراع مع المحتل الصهيوني إلى آخر المطاف لتكون النتيجة موت الذات الفلسطينية حاملة معها رمزا للشهادة في سبيل الوطن.

إن قضية الموت ليست متعلقة بالميت فقط بل بالباقين الذين هم على قيد الحياة،« فالمرء لا يحزن لواقع الموت، لأن الإنسان قد دمر، بل لأن الزمان قد انتصر، ولأنه سيفتقد قريبه وسيحرم من صحبته، وقد يذكر[7] قصر عمره ويذكر خصاله الحميدة، وما كان له من مآثر وأفعال سوف تبقى من بعده »[8]، كما أن قلق الموت لدى الإنسان الفلسطيني خاصة ناجم عن عدم وجود القبر، ولا مكان للدفن وليس هناك من سيتكفل بالجنازة أو إكرام الميت، إذ لا يابسة تتسع لأحلامه في التحرر والكف عن فعل الموت ما دام على أرضه وفي وطنه محتل يهودي يستولي على ممتلكاته.

وقد شكلت ظاهرة الموت النسيج الأساس في غالبية كتابات غسان كنفاني؛ حيث كان عالمه مشبعا بالموت، إذ عايش إحساس الموت بشكل دائم، ويظهر أبطال رواياته بصورته المتحدية فيقفون في وجه الموت ويعتبرون الحياة مقاومة مستمرة له، حتى معرفتهم بحتمية الموت قد غدت

شيئا فشيئا ملكية إنسانية مشتركة، ومن ثمة فلا يتعين عليهم النظر إليها باعتبارها اكتشافا جديدا ومفاجئا، بالرغم من ذلك فقد أتى عليهم حين من الدهر غدت فيه فكرة الموت متسمة بالشمول، أما متى حدث ذلك فأمر ليس من الممكن تحديده بأي درجة من الدقة...[9] ، ولقد ظل الموت بالنسبة للإنسان الفلسطيني المشكلة الأساسية في حياته على مر العصور التي عاشها مع المحتل الصهيوني الذي كان في مواجهة يومية مع دباباته وأسلحته الفتاكة التي كانت تهدد حياة الأسرة الفلسطينية واستمرارها.

وما دامت الهوية الفلسطينية في مواجهة دائمة مع المستعمر الإسرائيلي، فإن نتيجة هذا الصراع لابد وأن تكون الموت المصير الوحيد للطرف الأضعف والخاسر في هذه الحرب الطاحنة « الموت إذن حادث من نوع مختلف تماما، إنه حادث الحوادث، ليس مثلها جميعا إنه بالنسبة لنا ولغيرنا حادث عنيف يكسر إيقاع الحياة الرتيب نسبيا، ويجعلها تقف جامدة عند تاريخ يستحيل أن تتحرك بعده ولا تتقدم قيد أنملة عنه...»[10]، وهو ما يجعله آخر الحوادث على الإطلاق وأهمها وليس بعده توقعات ولا آمال يمكن للإنسان أن ينتظرها أو يرجو حدوثها بعد فعل الموت الرهيب المروع.

الجانب التطبيقي:

لقد ركز الروائي غسان كنفاني في أعماله الروائية على فكرة الموت باعتباره فكرة راودته طوال السنين التي قضاها في فلسطين وبعيدا عنها في المنفى ومخيمات البؤس والشقاء، فأحس بعمق وهول الموت، وكيف أن هذا الأخير « قضية كبرى تمثل حقيقة فجائعية لابد من الاقتراب منها والتعايش معها بألفة في سبيل تجاوزها إلى معنى أعمق وأشمل وأجدى، يتمثل في توحد الأضداد في علاقة الموت بالحياة »[11] ويلتقط غسان فكرة الموت ببساطة شديدة ودون مقدمات تذكر.

يطرح غسان كنفاني خصوصية التجربة الفلسطينية في مواجهة الموت، التي تبرز صورة مأساوية وسوداوية تكشف عن ضعف الشعب الفلسطيني في مقاومة فعل الموت، وهو ما يبرز بدءا من الرواية الأولى له **"رجال في الشمس"**، إذ يشكل موت الإنسان الفلسطيني بالنسبة لأبي قيس وأسعد ومروان حادثة مرعبة بعد ما سمعوه من قصص عن رجال ماتوا في الصحراء بحثا عن وطن جديد يؤويهم « كانوا يقولون لهم إن فلانا لم يعد من الكويت لأنه مات. قتلته ضربة شمس، كان يغرس معوله في الأرض حيث سقط فوقه وفوقها، وماذا؟ ضربة شمس قتلته تريدون أن تدفنوه هنا أو

هناك؟ هذا كل شيء. ضربة شمس! هذا صحيح... ولكن أيمكن للشمس أن تقتلهم وتقتل كل الزخم المطوي في صدورهم؟ كأن الأفكار تسيل من رأس إلى رأس وتخفق بهواجس واحدة »[12] يصر الروائي هنا أن تعاني شخصياته قبل أن يكون مصيرها الموت المجاني والسهل، فيأخذ بيدها إلى حتفها ومصيرها المنطقي في نهاية هذه الرواية ألا وهو حتمية موتها.

وها هو أبو الخيزران رفيق الطريق والسفر نحو الكويت، يصاب بالهول والرعب عندما تنتهي رحلة حياة رفقاء دربه الثلاثة اختناقا في خزان شاحنته دون أي مقاومة لفعل الموت، وبعد التعرض لمشاق عديدة وأهوال الهروب من مكان إلى آخر يموت الشيخ أبو قيس، والشاب أسعد، والطفل مروان في نهاية المطاف ميتة مروعة تجزع منها الأبدان وتثير الرعب في النفوس، يقول السارد: « لقد قر قراره منذ الظهيرة أن يدفنهم واحدا واحدا في ثلاثة قبور.. أما الآن فإنه يحس بالتعب يتآكله، وكأن ذراعيه قد حقنتا بمخذر... لا طاقة له على العمل... قبل أن يتجه إلى سيارته ويخرجها من كاراج الحاج رضا قال في ذات نفسه: أنه لن يدفنهم، بل سيلقي بالأجساد الثلاثة في الصحراء، ويكر عائدا إلى بيته »[13] ومن شدة الخوف الذي ألم به لا يعرف كيف يتصرف أمام هذا الموقف المرعب الذي وضع فيه، فقد كان يحسب أنه سيوصلهم إلى بر الأمان ولكنه أرسلهم لحتفهم، دون أن تحقق ذواتهم هدفا فرديا واحدا عاديا في حياتهم، ومستسلمين لفعل للموت رغم أنه كان باستطاعتهم الصراخ وطلب النجدة، وربما النجاة بحياتهم.

وهنا جن جنون أبي الخيزران، ولم يعد قادرا على التفكير، شل جسمه، ولم يدر ماذا يفعل بجثثهم التي كانت ولازالت فلسطينية من طينته، وفجأة توافيها المنية أمام ناظريه، لقد « قفز إلى الخارج وأغلق الفوهة ببطء، ثم هبط السلم إلى الأرض كان الظلام كثيفا مطبقا، وأحس بالارتياح لأن ذلك سيوفر عليه رؤية الوجوه، جر الجثث واحدة واحدة من أقدامها وألقاها، حيث تقف سيارات البلدية عادة لإلقاء قمامتها كي يتيسر فرصة رؤيتها لأول سائق قادم في الصباح الباكر »[14]، ففكر السائق أبو الخيزران في مآل الأجساد الميتة، التي صار من اللازم ترتيب رحيلها الأخير، ولم يجد فكرة أفضل من رميهم في القمامة ليتسنى دفنهم تحت إشراف البلدية، بدلا من تركهم في الصحراء فتأكل الكلاب جثثهم.

ويشير الروائي في **"ما تبقى لكم"** إلى الموت العادي تارة في موت خالة حامد، وهو موت فيزيولوجي مادي، وكيفية الاستعداد للموت وترتيب الجنازة والى غير ذلك...، تقول "مريم": «

وحين ماتت خالتنا ماتت على سريره.. يخيل إلي الآن أنه قصد ذلك قصدا، فحين كانت طريحة مريضة مرضها الأخير، قرر فجأة أن ينقلها إلى الغرفة الأخرى إلى سريره، ولم يقل قط لماذا وقد ماتت هناك بعد أن دقت الساعة دقة واحدة في الليل. وقد ماتت هناك بعد أن دقت الساعة دقة واحدة في الليل وأحسست بذلك تماما، فقد بدت تلك الدقة الوحيدة المبتورة والقاسية، بدت لنا جميعا خطوة أخيرة »[15]، ففي هذه الحالة موت الخالة كان موتا عاديا وطبيعيا في وطنها، ونتيجة لمعاناتها مع المرض الذي أبقاها طريحة الفراش سنينا طويلة.

وتارة أخرى يشير الروائي إلى الموت الزائف المعنوي، والذي تمثل في موت الشهيد الفلسطيني "سالم صديق حامد" في المعسكر أو الجيش بعد أن غدر زكريا صهر حامد، ووشى به إلى جنود الاحتلال الإسرائيلي الذين أعدموه فور التعرف عليه، « وقبل أن يعرف أحد ما سيحدث أخذ زكريا يصيح: أنا أدلكم على سالم. إلا أن سالما فوت عليه أن يكون خائنا حقيقيا فتقدم ثلاث خطوات ثابتة ووقف. وتحت قدميه المتوجهتين إلى الموت تفجرت الصحراء الصامتة بلا هوادة.... »[16] ، فجمالية الموت هنا منبعثة من شهامة وشجاعة الشهيد سالم الذي سلم نفسه للسلطات الإسرائيلية ووفر على زكريا ماء وجهه، وحفظ دم إخوانه المناضلين الفلسطينيين.

ويصف الروائي مشهد موته البطولي: « لقد اكتسى وجهه فجأة، وبلا تردد بتلك الملامح الراعبة الجامدة والمتكبرة التي تتخذها عادة وجوه الذين يعرفون أنهم سيموتون في ساحة عامة وتحت أنظار الناس جميعا، وفي سبيل شيء يحترمه الناس كلهم »[17]، فسالم رغم اغتياله من قبل السلطات الإسرائيلية إلا أن ذاته حية في نفوس الفلسطينيين الآخرين، لأنه ضحى بنفسه لأجل الوطن المقدس، وآثر موته هو على موت أحد آخر من إخوانه الجنود الفلسطينيين.

كما يمنح الروائي غسان كنفاني "أبا حامد" صورة أخرى من صور الشهادة في سبيل الوطن بعد أن حملت السلطات جثته مضرجا بالرصاص إلى باب داره « وسألني أحد الرجال: أنت حامد؟ وفجأة أخذت أبكي. ومن الشباك أطلت أمي ثم مضت بنواح ممزق، وانفتحت الشبابيك فجأة وأخذت الأصوات تندب. وتسلق الرجال السلم صامتين، وهو ملفوف بمعطفين وذراعه العارية تتهدل بينهم وتتأرجح جيئة وذهابا. ولم تكن مريم هناك، ولو كانت وشهدته لأصيبت بالجنون.»[18] وقد أحدث موته شرخا كبيرا في العائلة، وشغلت قضية موته جميع من حوله، وبقي

في ذاكرة الجميع أبد الدهر، فهو قد استشهد في سبيل الوطن الأمر الذي يعد مفخرة للإنسان الفلسطيني مما جعل موته موتا مجيدا.

وفي رواية **"أم سعد"** يصف الروائي مشاعر القهر والعذاب والأسى، ومعاناة الإنسان المبعد عن وطنه، هذه الأحاسيس التي تشعر بها ذات أم سعد بعد مرور أعوام طويلة على مفارقة فلسطين، ولم يبق في نفسها إلا أمنية واحدة هي الموت على أرضها، تعبر عن ما يدور في نفسها « ماذا أقول يا ابن عمي؟ في الليل أحسست بأنني قريبة من النهاية.. ما النفع؟ أريد أن أعيش حتى أراها. لا أريد أن أموت هنا، في الوحل ووسخ المطابخ...هل تفهم ذلك يا ابن عمي؟ أنت تعرف كيف تكتب الأشياء، أنا لم أذهب إلى مدرسة في عمري، ولكننا نحس مثل بعضنا. يا ربي! ماذا أقول؟ »[19]، وأم سعد تموت ألف مرة في اليوم في ذلك المخيم الذي تعيش فيه، بل هي ميتة أساسا بدون وطنها، إنها تحلم برؤية فلسطين حرة مستقلة، وباسترجاعها لسيادتها، وبعودتها إليها قبل أن تموت وهذا الحلم ليس بحلمها هي وحدها، بل حلم كل فلسطيني يعيش في مكان غيرها.

وهذا حال "فضل" الفلاح الفلسطيني في الرواية نفسها، بعد أن ضاقت عليه دنياه من الفقر والقهر والاستبداد، ومن ظلم الآخر اليهودي له ولأبناء شعبه ، يرمي بذاته إلى الموت في سبيل الوطن، يحمل مرتينته (سلاح) ويصعد إلى الجبل، فينضم لصفوف الفدائيين هناك، وبعد غياب طويل يجهل مصيره عند الناس ليعد ميتا « فضل مات بعد ذلك بعضهم يقول إنه مات مسلولا في المعصرة، وبعضهم يقول إنه زلق ووقع في الوادي، وبعضهم يقول إنه قتل في حرب الـ 48، بل إن بعضهم يقول إنه طلع من فلسطين في 49، وعاد إليها فقتلوه في الطريق، ولكن ذلك ليس هو الموضوع. أنا أتصوره دائما جالسا على العتبة والدم ينزف ممزوجا بالتراب والغبار من قدميه، ولا أتصوره ميتا »[20] فالشهيد وإن كان ميتا روحه عند الله تعالى إلا أن عطاءه وتضحياته باقية خالدة لا تموت في نفوس الأحياء.

أما في الرواية الرابعة **"عائد إلى حيفا"** فيمجد فيها الروائي البطولة والتضحية، عبر شخصية بدر اللبدة الذي جعل غسان كنفاني موته موتا هادفا، فقد « انخرط بدر في القتال وكأنه كان ينتظر ذلك اليوم منذ طفولته، وفي السادس من نيسان عام 1948 جيء ببدر إلى الدار محمولا على أكتاف رفقائه، كان مسدسه مازال في وسطه، أما بندقيته فقد تمزقت مع جسده بقذيفة تلقاها وهو على طريق تل الريش. وشيعت العجمي جثمان بدر كما يتوجب على الرفاق أن يشيعوا الشهيد، ثم

جيء بصورته مكبرة ...حيث كتب خطاط هناك اسمه قطب يافطة صغيرة تقول: إن بدر اللبدة استشهد في سبيل تحرير الوطن »[21] كان حلم بدر منذ صغره تقديم روحه للوطن، وما موته إلا نموذج واحد من نماذج شبان فلسطين الشجعان الذين يقذفون بأنفسهم يوميا للموت في سبيلها.

كما يعتبر سعيد. س ابنه خلدون ميتا، بعد علمه برفضه له ومناهضته لقضيته الفلسطينية، يقوم سعيد بإلغاء أبوته وانتسابه لابنه، ويصارح أمه اليهودية الجديدة مريام بذلك « أنت يا سيدتي لم تقولي له الحقيقة، وحين رويتها له كان الوقت قد مضى، أنحن الذين تركناه؟ أنحن الذين قتلنا ذلك الطفل قرب كنيسة بيت لحم في الهادار؟ الطفل الذي كانت جثته كما قلت لنا أول شيء صدمك في هذا العالم الذي يستحق العدل بحقارة كل يوم... ربما كان ذلك الطفل خلدون! ربما كان ذلك الشيء الصغير الذي مات ذلك اليوم التعيس هو خلدون، بل هو خلدون وأنت كذبت علينا إنه خلدون وقد مات، وهذا ليس إلا طفلا يتيما عثرت عليه في بولونيا أو إنجلترا »[22] يتنكر الأب من ابنه خلدون ويعتبره ميتا غير موجود، ويقر في النهاية أن له ابنا وحيدا هو خالد الذي لطالما كان يقدر معنى فلسطين الوطن.

وفي رواية "**العاشق**" يتخلى زيد عن عائلته من أجل الانضمام إلى صفوف الفدائيين الذين يقاتلون في سبيل الوطن والحرية، لكنه يخسر في المقابل حياته، وتشردت أسرته الصغيرة المتكونة من زوجته وابنته زينب « وحين انفجرت الثورة في الجبل اختفى زيد مثلما ظهر تاركا في ترشيحا زوجته وابنته الصغيرة دون أن يترك لهما شيئا... وقلنا يعود زيد اليوم، ويعود زيد غدا، ويعود بعد أسبوع، ويعود بعد شهر، ولكنه لم يعد إلا بعد ثلاثة شهور جثة مطرزة بالرصاص ومحمولة على ظهر حمار. لقد التحق زيد بالشيخ القسام في تلال ترشيحا يعبد مجذوبا بالكلمة القصيرة الكافية التي يقولها ذلك الرجل: موتوا شهداء، فمات زيد وضاعت أخبار زوجته وظلت زينب في بيتنا.»[23]، وإذا كانت المنية أمرا محتوما منذ البداية، فإن موت زيد وإن كان ذا قيمة إيجابية يفتخر بها الإنسان الفلسطيني- الاستشهاد في سبيل الوطن-، إلا أنه كان سلبيا من ناحية أنه كان سببا في ضياع وتشرد أسرته من بعده.

ويشير الروائي غسان كنفاني في رواية " **الأعمى والأطرش**" إلى الموت العادي للإنسان، ولكنه موت بإيمان بحقيقة ما داخل الذات الإنسانية، وقد ورد هذا النوع من فقدان الحياة مرتين في الرواية، أما الأول منها في وفاة أم الأعمى، المرأة التي لم تفقد يوما إيمانها بعودة البصر لابنها وشفائه من

علته، يشير الأعمى عامر إليها « وكنت أنا أقيس المسافة بتلمس العرق الذي كان يتفصد من جبهتها المجهدة وأحيانا كانت تنزلق كفاي الصغيرتان فأحس وجهها كله ينضح بالعرق والدموع معا، لو كان البؤس بذارا لنبت في شقوق وجهها شوكة الضاري من فرط ما سقتها بالعرق وبالدموع، ولكنها لم تفقد إيمانها، هذا صحيح لم تفقد إيمانها وماتت فيه، وها هو ذا بالنسبة لي يموت معها»[24] يعني هذا أن أم الأعمى حملت معها إلى قبرها صبرا عظيما وأملا كبيرا في استرداد ابنها لنظره، وماتت عليه. إنه صبر لم يستطع هو ذاته تحمله والبقاء عليه.

أما الموت الثاني في الرواية فكان موت عائلة الأطرش كلها إثر انفجار قنبلة في القرية التي كانوا يسكنونها، ويعتقد الأطرش أبو قيس أنه نجا منها بفضل إيمانه بعلته – الصمم- والتي لطالما اشتكى منها في حياته « وقد حدث الأمر كله في لحظة صغيرة لا تكاد ذاكرتي تحصرها: يبدو أنني لم أسمع أصوات الانفجارات، ونحن نجلس أمام بيتنا في الطيرة ذلك المساء، واندفع والدي وشقيقي وأمي عبر الطريق إلى حيث يقوم الملجأ المرتجل وسقطت عليهم القنبلة وهم في منتصف المسافة. أما أنا فكنت ما أزال جالسا في مكاني. وأنقذني الصمم وقلت لنفسي سنة وراء الأخرى: إن المعجزة قد وقعت وإنني أدين بحياتي لعلة طالما شكوت منها »[25] وقد ورث إيمانه بعلته من الشيخ حسنين الذي طالما كان يعظه ويرشده للصبر بقضاء الله وقدره، ومات هو نفسه مؤمنا بضرورة استقلال وحرية فلسطين، واسترداد شعبها لأرضه وهويته الوطنية.

وفي رواية **"برقوق نيسان"** يتألم أبو قاسم- خليل-، ويصاب بالقهر لمفارقة ابنه قاسم خليل بعد أن وافته المنية شهيدا في سبيل الوطن، واستحال التعرف على جثته التي تحولت إلى رماد من كثرة الحروق «... إلا أن حادثا صغيرا وقع يجدر تذكره: فقد عرضت الجثث على بعض الفدائيين الأسرى في محاولة للتعرف عليها، وكانت أربع جثث مشوهة بحيث استحال التعرف على أي منها، وأبدى أحد الأسرى شكه في أن تكون إحدى الجثتين الباقيتين لشاب يدعى قاسم كان يعمل ميكانيكيا في أريحا»[26]وبذلك يفقد أبو قاسم آخر فرد من عائلته ليبقى وحيدا بلا سند في آخر أيام حياته.

ويجتاحه حزن عميق بعد أن يتأكد من جثة ابنه « وأخيرا أدخلوه إلى غرفة مترعة برائحة الموت، وكان قاسم هناك ممددا على طاولة، وقد نظرت إليه لحظة واحدة فحسب، ثم أخذت أنظر إلى راحة يده ورأيت فيها إرادة رجل بطل ظل ممسكا بسلاحه حتى اللحظة الأخيرة، ولم تفرد أصابعه

إلا بالقوة وبعد أن مات »[27] إن عزاء الشيخ قاسم الوحيد يكمن في أن ابنه مات شهيدا في سبيل الوطن، هذا هو الأمر الذي يقويه ويبعث الصبر في نفسه.

تكونت ظاهرة الموت في روايات غسان كنفاني نتيجة منطقية لأفعال الذوات في سير الأحداث، وتنوع بين الموت العادي الطبيعي، والموت الفجائعي، والموت الزائف، والموت بإرادة بعد تحقيق الهدف المنشود، والموت المجاني، وأخير الموت استشهادا في سبيل الوطن. ومهما كانت طبيعة الموت وحقيقته إلا أنه ظل أمرا محتوما في الخطاب الفلسطيني الذي يعبق برائحة الموت اليومي للإنسان الفلسطيني.

تكمن جمالية الموت في الأعمال السردية الكنفاني في كونه جاء مطابقا للواقع وحقيقة الحياة الفلسطينية، مبرزا تبريرات عديدة لطبيعة هذا الموت، ومحددا أقسامه في تصنيفات ونكهات تراوحت بين دلالات التمرد والعصيان والمواجهة ونبذ فعل الموت ورفضه من جهة، ومن جهة أخرى البكاء والاستسلام والصراخ والحيرة، ومن جهة ثالثة هناك الموت الوسطي واختيار المنية في سبيل الوطن والحرية والسيادة.

الهوامش:

[1]- إبراهيم السعافين: الرواة على بيدر الحكمة (القصة القصيرة في فلسطين والأردن 1950م/2000م) ، دار الشروق، عمان الأردن ، ط1، 2008م، ص 82.
[2]- جاك شرون: الموت في الفكر الغربي، تر: كامل يوسف حسين ، عالم المعرفة ، الكويت ، دط ، 1984م ، ص 22.
[3]- جاك شرون: الموت في الفكر الغربي، تر: كامل يوسف حسين، ص 10.
[4] - أحمد محمد عبد الخالق : قلق الموت، عام المعرفة ، الكويت ، شعبان 1998م، دط ، ص 38.
[5]- صفاء عبد الفتاح محمد المهداوي: الأنا في شعر محمود درويش(دراسة سوسيوثقافية في دواوينه من 1995م-2008م) عالم الكتب الحديث، عمان الأردن، ط1، 2013م، ص 200.
[6]- زايد محمد إرحيمة الخوالد: صورة المكان في شعر عز الدين المناصرة ، دار الراية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط1، 1433ه/ 2012م، ص 262.
7
[8]- نوزاد حمد عمر: الغربة في شعر كاظم السماوي ، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان الأردن، دط، 2012م، ص 205.
[9]- ينظر جاك شرون: الموت في الفكر الغربي، تر: كامل يوسف حسين، ص 21.
[10]- أحمد محمد عبد الخالق : قلق الموت، ص 16.
[11]- إبراهيم السعافين: الرواة على بيدر الحكمة (القصة القصيرة في فلسطين والأردن 1920-2000م)، ص 87.
[12]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، المجلد الأول، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1، 1972م ص121، 122.
[13]-غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 147.
[14]-غسان كنفاني: الآثار الكاملة(الروايات)، ص 151.
[15]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 174.
[16]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 215.
[17]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 201.
[18]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 189.
[19]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 271.
[20]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 308، 309.
[21]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 389.
[22]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 403.
[23]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 456، 457.
[24]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 510.
[25]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 529.
[26]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 582.
[27]- غسان كنفاني: الآثار الكاملة (الروايات)، ص 587.